

**التطور التاريخي لصعود وتفكك الدولة
الإمبراطورية**

بحث مقدم من

د. وئام السيد احمد عثمان

المدرس المساعد

بقسم العلوم السياسية و الإدارة العامة

قسمت أغلب الدراسات التاريخية – (التاريخ البشري) "قسمين كبيرين هما: العصور التاريخية، وعصور ما قبل التاريخ. ونظراً إلى أن كم المعلومات المتوفرة عن عصور ما قبل التاريخ كانت قليلة قام المؤرخون بتقسيم العصور التاريخية إلى ثلاثة عصور (قديم – وسيط – حديث)؛ وإن اختلفوا قليلاً في تحديد بداياتها ونهاياتها. إلا أنهم جميعاً اتفقوا على إن اختراع الكتابة في ٣١٠٠ ق.م هي الخط الفاصل بين المرحلتين.^(١)

ومع الاكتشافات الأثرية والعلمية في القرن العشرين تم تحريك الخط الفاصل بين مرحلة العصور التاريخية ومرحلة ما أطلق عليها (ما قبل التاريخ) ٣٠٠٠ سنة كاملة. الأمر الذي أتاح عودة شعوب الشرق الأوسط وشمال إفريقيا إلى مظلة التاريخ الإنساني بعد إقصاء علماء عصر الهيمنة الأوروبية تاريخ هذه الشعوب إلى مرحلة ما قبل التاريخ؛ هذا بالإضافة إلى اعتبار تاريخ أوروبا جزءاً من تاريخ الإنسانية وليس كل تاريخ الإنسانية.^(٢)

ونظراً لصعوبة حصر جميع الإمبراطوريات عبر العصور وإخضاعها للأطر التحليلية التي تمكن الدراسة من : تبويب وتنظيم الضوابط التي تؤدي إلى ظهور واختفاء الإمبراطوريات، تركز الدراسة على الإمبراطوريات التي كان لصعودها ونموها وتفككها أكبر الأثر في تغير النظام الدولي والانتقال من عصر إلى آخر.

حيث يعد النظام الدولي المؤشر الرئيس لظهور واختفاء الدولة الإمبراطورية، فهيكّل النظام الدولي يحدد المنظومة التي تتأسس على ضوئها علاقات القوة والنفوذ بين وحدات النظام المختلفة، والتي

(١) د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ – المنخل إلى علم التاريخ – المكتبة الأكاديمية – القاهرة – ١٩٩٤ – ص ١٢١

(٢) عزيز فهمي – إسقاط نظرية صراع الحضارات وإعادة تقديم الإسلام للعقل العربي – مطبعة الزهراء للإعلام العربي – القاهرة – ٢٠٠٦ – ص ١٥١.

تتفاوت في قدرتها على التأثير في النظام الدولي؛ فعدم تساوي الفاعلين الدوليين من حيث تأثيرهم على النظام الدولي وتأثرهم به تشير إلى وجود تدرج بين وحدات النظام الدولي، وفقاً للقدرات التي تمتلكها. ما يجعل من هذا التفاوت محدد لقيادة قمة النظام.^(٣)

ومن العصر القديم ... والذي انضمت له الإمبراطوريات الشرقية القديمة، تستعرض الدراسة الإمبراطورية الفرعونية كنموذج لأقدم الإمبراطوريات تنظيمياً، وتركز الدراسة على تناول " الدولة الإمبراطورية الرومانية " آخر إمبراطوريات العصر القديم، والتي استطاعت أن تصهر عوامل قوة الإمبراطوريات السابقة تحت بوتقة حضارة رومانية جديدة، تفاوتت من خلالها مقدرات الضعف التي أدت إلى انتهاء تلك الإمبراطوريات.

وفي العصر الوسيط ... تركز الدراسة على " الإمبراطورية البيزنطية " حيث كانت امتداداً للإمبراطورية الرومانية في العصر القديم، وأساس عصر النهضة الأوروبي. وتسعى الدراسة من خلال تلك التجربة الإمبراطورية رصد إمكانية إحياء الإمبراطوريات بعد تفككها.

ومن العصر الوسيط أيضاً تهتم الدراسة بعرض " الأمة الإسلامية " - تحت مفهوم الدولة الإمبراطورية والتي استطاعت الاستمرارية في العصر الوسيط وأوائل العصر الحديث ؛ الأمر الذي أشار إلى امتلاك تلك الأمة إلى مقدرات قوة قادرة على مواكبة تغييرات النظام الدولي عبر العصور.

وفي العصر الحديث ... تتناول الدراسة كل من الدولة الإمبراطورية الفرنسية باعتبارها أساس النهضة الثقافية في عصر الازدهار الأوروبي، والدولة الإمبراطورية البريطانية أساس النهضة

لمزيد من التفاصيل حول هذا المعنى:
- د. نادية مصطفى - نظرية النظم ودراسة العلاقات الدولية - محاضرات غير منشورة - معهد البحوث والدراسات العربية - قسم البحوث والدراسات السياسية - القاهرة - ١٩٩٩ - ص ٧٩، ٨٠.

الاقتصادية. وقد امتلكت كلتاها مقدرات قوة استطاعت أن تحدث تغييرات جذرية في عناصر النظام الدولي. هذا بالإضافة إلى أن التجربة البريطانية استطاعت أن تحافظ على استمراريتها عبر تطور المفهوم الإمبراطوري وصولاً إلى الحفاظ على مكانتها كقوى عظمى في العصر المعاصر. الأمر الذي أشار إلى امتلاكها محددات للاستمرارية عبر تغييرات النظام الدولي. وتهتم الدراسة بعرض تجربة " الدولة الإمبراطورية الروسية " وذلك تمهيداً لمعرفة جذور الدولة الإمبراطورية السوفيتية، والتي اتخذتها دراسة لاحقة نموذجاً معاصراً لتطبيق النظرية العامة لصعود وتفكك الدولة الإمبراطورية.^(١)

١ - تقييم الاتجاهات العامة لصعود وتفكك الإمبراطورية الفرعونية :

امتلكت الدولة الإمبراطورية الفرعونية على الرغم من كونها أكثر الإمبراطوريات تعبيراً عن الجماعات البشرية الأولى والحضارات القديمة السابقة للتاريخ، مجتمع إمبراطوري متطور استطاع أن ينتقل من الهدف التكويني إلى الهدف التوسعي، الذي منح المصريين شرف إقامة أول " إمبراطورية إقليمية " كان مقاومتها الرئيس هو: النظام السياسي والإداري، الذي استطاع توظيف مقومات الحضارة المصرية - والتي سبقت نشأة الإمبراطورية - بدعائم الوحدة التي شيدت القومية المصرية.

حيث اتسم النظام السياسي والإداري ، والذي اطلق عليه "إدارة المدينة المعبد" لغلبة الطابع الديني ، بهرمية السلطة حيث يوجد الملك على رأس الهرم السلطوي ، يليه الوزراء ، فحكام الأقاليم، فالعمد، كما اتسم النظام الاجتماعي بالفصل والتمييز بين الطبقات حيث احتل النبلاء والكهنة موقعاً خاصاً ومتميزاً في السلم الاجتماعي، بينما احتل الفلاحون والخدم أدنى هذا السلم.

١- لمزيد من التفاصيل :

ونام السيد عثمان - النظرية العامة في صعود وتفكك الدولة الإمبراطورية دراسة حالة للإمبراطورية السوفيتية

(١٩١٧-١٩٩١) كلية التجارة - جامعة قناة السويس ٢٠١٠

ومع ذلك فلم يكن النظام الطبقي في الإمبراطورية الفرعونية صارماً أو قائماً على نظام الوراثة وحدها وإنما تضمن من المرونة ما يكفي للسماح لأصحاب المواهب والكفاءات بالانتقال من الطبقات الدنيا إلى الطبقات الأعلى منها. الأمر الذي منح الاستمرارية للحضارة الفرعونية والتي كانت في علاقة طردية مع التاريخ الإمبراطوري. وصولاً إلى أن أصبح النموذج الفرعوني نموذجاً تاريخياً لكافة النظم البيروقراطية والإدارية التي تليه.

ونظراً لاتساع الأراضي الديمقراطية الخاضعة للإمبراطورية المصرية فقد اضطر الفرعون لتفويض جانب من صلاحياته إلى بعض الكهنة أو قادة الجيوش أو كبار موظفي الدولة ، وخاصة فيما يتعلق بإدارة شئون الإمبراطورية في القارة الإفريقية. وفي ظل هذه الأوضاع اتسعت اللامركزية في البلاد، واضطرت الدولة لاستخدام أجانب في تيسير كثير من الأمور، مما مكنهم من ممارسة تأثير ونفوذ واحتلال مكانة أضعفت سلطة الحكم المركزي، مما كان له أكبر الأثر في تفكك الإمبراطورية وخضوع مصر للحكم والنفوذ الأجنبي.

٢- تقييم الاتجاهات العامة لصعود وتفكك الإمبراطورية الرومانية :

- استطاعت الإمبراطورية الرومانية أن تحقق تجربة الإمبراطورية العالمية النزعة، وذلك فكرياً وتطبيقاً، شكلاً وتراثاً، فلسفة وحضارة ، فقد استطاعت أن تستوعب جميع تجارب الدول الإمبراطوريات في العصر القديم وخاصة تجارب شعوب الشرق الأوسط، السياسية والحضارية ثم مزجتها بتراثها الأغريقي الروماني ، وكان المقاوم الرئيس لصعودها هو تنفيذ سياسة الوحدة لجميع عناصر تكوينها:
- فالرايا تم توحيدها من خلال الاتساع في مفهوم الرعاية.
 - والاقليم تم تويده عن طريق نظام البلديات.
 - والسلطة توحدت من خلال اضفاء القدسية على الإمبراطور.

وترجع قوة وحدة الإمبراطورية الرومانية إلى نظامها القانوني ودستورها القائم على أساس عقلاني مركزة للسلطة، والذي تم صياغته في قانون روما الموحد؛ لذا ظل الحكم الروماني الذي تميز بكفاءته السياسية والإدارية والعسكرية محتفظاً بقوته خلال عدة قرون وخاصة في كل من القرن الأول والثاني ما جعل المؤرخين لا يكفون عن البحث والتقصي عن الأسباب التي أدت إلى تفكك هذا الصرح الشامخ.

فأصحاب نظرية (المادية التاريخية) القائلة "بأن تنظيم وسائل الإنتاج هو القوى الحتمية المحركة للتاريخ"، فسروا سقوط الإمبراطورية بأنه انتقال من مجتمع الرق إلى مجتمع الإقطاع، ما أدى إلى انتقال الحضارة من عصر إلى آخر من القديم إلى الوسيط ويقول المؤرخون الماركسيون إن تحول الإمبراطورية من عصر المجتمع القديم إلى عصر المجتمع الوسيط جاء نتيجة للصراع الطبقي الذي ساد الإمبراطورية في طورها الأخير، ويبررون نظريتهم بأن مجتمع الرق الذي هو مصدر الطاقة الإنتاجية في بداية عصر الإمبراطورية تدهور خلال الثلاثة قرون الأخيرة من تاريخها. ولم يحاول الرومان ملئ ذلك الفراغ بقوى عاملة من بينهم؛ لأن الروماني كان يحتقر الأعمال اليدوية والحرف الانتاجية الأمر الذي أدى إلى تدهور الصناعة ، وتحجرت الوسائل الإنتاجية حتى في مجال الزراعة. فتدهور الإنتاج وبالتالي أفلس الاقتصاد.

وعلى جانب آخر نجد مدارس مختلفة في الغرب حاولت تفسير سقوط الإمبراطورية (بمفاهيم انثروبولوجية) ، مثل أزمة القوى البشرية أو تدهور العنصر الروماني المبدع، واختفاء القيادة الحكيمة كل هذا الأراء المتصارعة وغيرها تضافرت لتتسبب في تفكك الإمبراطورية. إلا أن الجانب السياسي والإداري كان الهيكل الأساسي لتاريخ الإمبراطورية، فعندما ضعف هذا الجانب في القرنين الرابع والخامس، تسبب في انهيار المجتمع- داخليا - فالتسلط البيروقراطي قضى على وحدة الإمبراطورية داخليا ، الأمر الذي أدى إلى سهولة تفكك الإمبراطورية على أيدي القبائل الجرمانية.

مر العالم بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية بمرحلة انتقالية انتقل فيها العالم من العصور القديمة إلى العصور الوسيطة والتي انقسم فيها النسق الدولي إلى : العالم البيزنطي ، والغرب الجرمني، والعالم الإسلامي

استطاع في تلك الفترة العالم البيزنطي أن يكون " إمبراطورية " استمرت أكثر من عشرة قرون، واستطاع العالم الإسلامي أن يكون " أمة " اتخذت طابع الإستمرارية والنمو عبر العصور الوسطى وحتى الأزمة الحالية فكانت تأثيرات كل من الإمبراطورية البيزنطية ، والأمة الإسلامية في النظام الدولي أثناء العصور الوسطى أكثر إيجابية من تأثيرات العالم الغربي الجرمانى ، والذي انحصرت تأثيراته في كونه من التحديدات الخارجية التي تسببت في تفكك الإمبراطورية البيزنطية.

لذا تقتصر الدراسة على تناول العالم الغربي في الجزء الخاص بالتحديدات الخارجية في الإمبراطورية البيزنطية. وفيما يلي يتم استعراض كل من الإمبراطورية البيزنطية ، والأمة الإسلامية، نظراً لتأثيرهما اللا محدود في العصور الوسطى. وفي بعض من العصور اللاحقة

٣- تقييم الاتجاهات العامة لصعود وتفكك الإمبراطورية البيزنطية:
تعتبر التجربة البيزنطية تعبيراً واضحاً لتطور أشكال الإمبراطوريات عبر العصور ، حيث تخطت الإمبراطورية الهدف التكويني و الهدف التوسيعي الى هدف الحفاظ على الوضع الدولي القائم من أجل الاستمرارية في التواجد.

لذا كانت البعثات التبشيرية في الخارج ، والتي حملت عقيدة بيزنطة وثقافتها من وسط أوروبا الى الشرق الاقصى ، وأقامت التقاليد التي استمرت طوال العصور الوسطى ، حيث استطاعت الإمبراطورية أن تستعويض عن عدم ثبات التوسع الاقليمي باستيطان العقول البشرية ، فالكنيسة الحبشية والتي لاتزال باقية يرجع فضل تأسيسها إلى جهود بيزنطة الدبلوماسية، والتي شجعت حاكم الحبشة على اعتناق المسيحية ، من خلال مساعدته لضم الممالك المجاورة.

واحتفظت السلطة المركزية بالإمبراطورية بعيداً عن النظم القطاعية وذلك من خلال ما يلي:

التصدي المستمر لحكام الأقاليم للانفراد بالحكم.
باستحداث التنظيم الاداري الجديد "النيومات" لتحقيق التوازن بين المدنيين والعسكريين.

منع ملاك الأرض من الانخراط في سلك الجندية.
ومنع الفلاحون المجندون من أي صلة بالقطاعية الكبرى.

قام هذا التنظيم على بيروقراطية واعية تستند الى اقتصاد نقدي.
يرفض العمل الفردي ، ويعمل على أداء العمل في شكل وحدة عادلة.

وقد بلغت كفاءه مركزية الإمبراطورية إلى عدم مساس عوامل
الاضطراب لها الا بصورة سطحية ، ويظهر ما سبق بوضوح أثناء
تحول الإمبراطورية إلى مجرد أمارة لاتينية مما أدى إلى طمس
التعاليم المسيحية الصحيحة بتعاليم الديانات القديمة . فعن الوثنية
أخذت المسيحية عبادة الصور والتي أدت إلى صراع الايقونات.
لقد نجحت الإمبراطورية البيزنطية - من خلال المركزية - في
تطبيق سياسية الفصل بين الدين و الدولة و التي أدت إلى زيادة سطوة
"البابا" على الحكم ، لذا كان تحقيق أطماع الغرب في الإمبراطورية
ذات صيغة دينية ، وذلك من خلال أثاره الخلافات المذهبية الدينية ،
والتي كانت السبب الرئيس لتفكك الإمبراطورية

٤- تقييم الاتجاهات العامة لصعود وتفكك الأمة الإسلامية

امتلكت الأمة الإسلامية نموذج مثالي لصعود وازدهار التجمعات
الإنسانية، وذلك للأسباب الآتية:

- أن المنهج الإسلامي القائم على عقيدة الوحدانية منهج "كلي
شامل" يجمع بين مبادئ الدين والدنيا، وهو موجه إلى الناس أجمعين،
والذي وضع هذا المنهج هو الله جل جلاله "الإله الواحد الأحد القادر
على كل شيء". لذا عجز الإنسان بقصور عقله وعجز بشريته أن
يضع منهجاً يماثل المنهج الإسلامي، فهو لا يدرك مطلق الحقائق أو
يملك أسرار الخلاق.

- ارتكز التضامن السياسي بين أبناء المجتمع الإسلامي على
أساس مبادئ كلية، وقيم عامة تتجاوز الخصوصيات الطبيعية التي
تمايز بين الناس من لون أو عرق أو لغة أو إقليم، فكان هذا هو
المنظور القرآني لمفهوم الأمة والذي من خلاله تم تحقيق "الوحدة"
بين كافة الشعوب الملتزمة بالمبدأ الإسلامي من خلال تحقيق التوازن
بين الرابطة الأمنية وبين الولاءات القائمة على أساس قومي أو
قطري، فقد تمكنت الأمة بوعيتها الإسلامي، من الحفاظ على الوحدة
الثقافية والاقتصادية في شتى بقاع الأرض الإسلامية.

- امتلاك مقومات العالمية والاستمرارية النابعة من احتواء
الحضارة الإسلامية لثقافات الشعوب المتباينة والحضارات
وأوضاعها المختلفة، وتولد حضارة إسلامية ذاتية تهدف إلى بيان أثر
القيم العقيدية في الارتقاء بالإنسانية، من خلال التوفيق بين قيم

الإنسان الدينية وحاجاته العلمية والعملية. فكانت الاستمرارية من خلال مساهمة المنهج التجريبي الإسلامي في بناء النهضة العلمية الأوروبية في العصور الحديثة.

أما عن هبوط الأمة الإسلامية ، فنجد أن التفكك لم يكن تفكك لكيان الأمة ومقوماتها بقدر ما كان تفككاً للوحدة السياسية ذات التأثير السياسي في النظام الدولي.

حيث استطاعت الأمة الإسلامية السيطرة على النظام الدولي أكثر من ألف عام، تخللت تلك الفترة التاريخية انحسارات كثيرة للتأثيرات الإسلامية، إلا أن الإسلام كان يملك القدرة على العودة باستمرار؛ بقيادة الحياة السياسية والتشريعية والحضارية وصياغتها بما ينسجم ومبادئه الأساسية. وللتدليل تاريخياً:

- نجد نموذج الخليفة الأموي الخامس ومبادئه "عمر بن عبد العزيز" وإصلاحه الثوري، للأمة بالعودة إلى أطرها الإسلامية والتزامها المسنول لمعطيات القرآن والسنة.

- استطاعت القيادة في العصر العباسي الأول أن تنقل الأمة من مرحلة التمزق إلى ذروة النهضة، بتكوين حضاراتها الذاتية.

- تصدي صلاح الدين الأيوبي للحروب الصليبية في أعقاب انقسام الخلافة العباسية وتصدي كلا من قطز وبيبرس لهجمات المغول والتتار.

- ما حققته الإمبراطورية العثمانية - بعد التراجع الحضاري لكثير من بلدان العالم الإسلامي من استعادة لزام المبادرة في التقدم والتحضر ، في رقعة من الأرض بلغت من الاتساع والوحدة مالم تبلغه دولة إسلامية على مر تاريخ المسلمين، وظلت محتفظة بهذا التقدم ثلاثة قرون.

ما سبق يثير تساؤل مهماً، لماذا وصلت الأمة الإسلامية إلى مرحلة التفكك بل الانحطاط؟ نُجيب عن هذا التساؤل بأن إخفاقات الصحوة الإسلامية، وضرب الحركات التجديدية التي ملأت العالم الإسلامي، من قبل أعداء الأمة، منذ أن أخذ الضعف والفساد يظهر في دولة الخلافة العثمانية وحتى العصر المعاصر هي السبب الرئيس للوصول إلى مرحلة الانحطاط؛ فمطامع أعداء الإسلام في الأوطان الإسلامية كان أقوى أنواع التحديات التي أدت إلى تفكك وانحطاط الأمة؛ وذلك لجذورهم التاريخية الممتدة مع المد الإسلامي.

■ فنجد أن الأسباب الرئيسية لأحداث الفتنة في عهد الخليفة هـ "عثمان بي عفان" رضي الله عنه، هو الحشد الكبير من اليهود الذين انتموا للإسلام وظلوا يعملوا على تخريب المجتمع الإسلامي من الداخل، وساندوا كل عناصر هادمة لتفكيكه، وكان من أشهرهم "عبد الله بن سبأ" ودوره في إشعال نار الفتنة وصولاً إلى "معركة الجمل".

■ ظهرت تشكيلات سياسية ذات جذور فارسية ويهودية، اعتنقت مبادئ وعقائد هدامة – بعيدة كل البعد عن عقيدة الإسلام – مارست قواها الذاتية ضد أرض الإسلام وعقيدته ووجوده، الأمر الذي قادها إلى محاربة الإسلام كعقيدة وتنظيم، وإلى الصراع مع الوجود العربي. كان من أهم تلك التشكيلات، "الإسماعيلية" بمختلف أجنحتها، وحركة "الحشاشين" وهم يحاربون أهل السنة ويدعون إلى إسقاط الفرائض الشرعية، وكان هناك أيضاً دولة "قرامطة البحرين" الإلحادية، "الدولة البابكية" في أذربيجان والتي سعت إلى مساعدة الأعداء المتربصين على الحدود والثغور.

التجربة التاريخية للأمة الإسلامية تنفي إمكانية فناء كيان الأمة مثل كثير من الإمبراطوريات التاريخية التي لم يتبق منها إلا أثارها الخالدة، والأمة الإسلامية على الرغم من انقسامها السياسي استطاعت من خلال الوعي الإسلامي للنموذج المثالي الحفاظ على وحدتها الثقافية والاجتماعية التي ساعدت على نشر الإسلام باختلاف الزمان والمكان، ما أعطى إمكانية قيام وحدة سياسية مستقبلية، عبر عملية إعادة بناء ثقافي أخلاقي، يعمل على التمسك بالذاتية الحضارية الإسلامية، ونقصد هنا ثوابت الأمة – والتعامل من هذا المنطلق مع عطاء العصر الفكري، وهو ما يسمى بالمعاصرة؛ من أجل فعالية تكوين نسق حضاري إسلامي معاصر في مواجهة التحديات كافة.

ويراعي في هذا النسق أن يكون متعدد المراكز يتكافأ فيه بشيء من التفاوت، الاتساع الأفقي للرقعة الإسلامية، وبالتالي فإن الوحدة المستقبلية للأمة تتأتى من انتشار متسق لمراكز متعددة، ما يسمح بالتوازي في النضج الفكري والفعل بين مختلف المناطق الإسلامية.

فيما كان الأتراك العثمانيون يتوسعون في آسيا الصغرى منذ القرن الحادي عشر بدأ اليونان يرحلون نحو الغرب؛ حتى سقطت القسطنطينية ١٤٥٣، فرحل علماءها إلى الغرب لا سيما إلى إيطاليا، فاندمج الفكر الإيطالي بتيار جديد من الفكر البيزنطي اليوناني، فبزغ

"عصر النهضة" من خلال مجموعة من الأحداث والأفكار والمنجزات العلمية والأدبية والفنية، كانت بمثابة فترة انتقالية من العصور الوسطى إلى العصر الحديث.

تميزت إمبراطوريات تلك الفترة بالسعي وراء الاستحواذ على لقب وأملاك "الإمبراطورية الرومانية المقدسة"، من خلال توسعات اتسمت بطبيعة تجارية. ومن أشهر إمبراطوريات عصر النهضة الإمبراطورية البرتغالية، والإمبراطورية الأسبانية. وقد شهد نهاية القرن الثامن عشر كلتيهما تدهوراً لدوريهما بعد أن تحدثت بريطانيا وفرنسا كلتيهما.

٥- الاتجاهات العامة لصعود وهبوط الإمبراطورية الفرنسية:

كانت الإمبراطورية الفرنسية مثالاً واضحاً للإمبراطورية الاستعمارية حيث كان الهدف الرئيس لسياستها التوسعية بناء إمبراطورية استعمارية على المستوى الداخلي في القارة الأوروبية وصولاً إلى الحدود الطبيعية لفرنسا، وعلى المستوى الخارجي في كل من العالم الجديد والعالم القديم، حيث استطاعت أن تكون أكبر إمبراطورية استعمارية بعد بريطانيا، وكان الاتجاه العام لمقومات صعود الإمبراطورية الفرنسية سواء الأولى أو الثانية هو اتخاذ مبادئ وأفكار الثورة الفرنسية كوسيلة لتحقيق هدف الإمبراطورية؛ فلم تتمكن فرنسا من فرض أفكارها على القارة الأوروبية إلا حين تحولت طاقتها القومية عن طريق الثورة وعندما قام نابليون بنشرها بصورة باهرة.

وإذا كانت الإمبراطورية الأولى قد تفككت بسبب اختلال الموازين في سلوك "بونابرت" سواء على المستوى الداخلي أو المستوى الخارجي. فإن سياسة "نابليون الثالث" الخارجية أيضاً كانت الفاعل في سقوط حكمة والقضاء على الإمبراطورية الثانية.

وإن دل ذلك على شيء فإنه يدل على أن "الإمبراطورية الفرنسية"، هي إمبراطورية الزعامة السياسية حيث سعدت وتفككت بفضل عبقرية "نابليون بونابرت" الحربية والسياسية، والتي بلغ تأثيرها حد تصدع صرح أنظمة العهد الأوروبي القديم، بالإضافة إلى احتفاظ فرنسا بدور رئيسي في العلاقات الدولية بعد تفكك الإمبراطورية؛ لخوف الدول العظمى - وعلى رأسهم بريطانيا - من أي تقدم فرنسي يعيد التوسعات النابليونية، واستمر هذا الدور عبر الأنظمة الدولية المتغيرة بفضل نموذج الشعب الفرنسي الذي حرص على قوة الأمة،

فقدت فرنسا الدولة الوحيدة من الدول العظمى الأوروبية التي لا توجد بها مسألة الأقليات القومية..

٦- الاتجاهات العامة لصعود وتفكك الإمبراطورية البريطانية :
أكدت الإمبراطورية البريطانية صفة التطور والتغير للإمبراطورية كظاهرة سياسية، حيث تطور هدف التوسعات الخارجية، من التوسع العسكري إلى التوسع الاقتصادي وانتشار ظاهرة التبعية لنشر نفوذ الإمبراطورية عالمياً.

- حيث كانت نموذج للإمبراطوريات الاستعمارية التي حققت تفوقاً عالمياً بفضل المزيج البارع بين عدة مجالات هي: السيادة البحرية والانتماء المالي والخبرة التجارية، ودبلوماسية التحالف، وما فعلته الثورة الصناعية في تعزيز هذا النجاح وتحويلها إلى نوع مختلف من القوي العظمى؛ فتأثيراتها في النظام الدولي لم تكن تقاس وفقاً للمقاييس التقليدية للسيادة العسكرية، حيث كانت قوتها مركزة في المجالات المحددة السابق ذكرها، والتي عدت من وجهة النظر البريطانية ذات قيمة أكبر من وجود جيش دائم.

- وكان أيضاً نموذج " للدولة الإمبراطورية " ، فقد طورت مفهوم الإمبراطورية وفقاً لقواعد نظام الدولة القومية الحديثة، ساعد على ذلك: نجاحها في تكوين وحدتها القومية، وتطورها الناجح إلى الحكم البرلماني والذي أدى إلى تأمين توحدها السياسي نحو تحقيق هدف الصالح العام، وسهولة الحكم المركزي الميسر، بسبب موقعها الجغرافي.

ولقد استطاعت الإمبراطورية من تثبيت نفوذها السياسي والاقتصادي بل والثقافي، على مساحات تتسع وتفرض تفوقاً من خلال حرصها الدائم على التوازن بين القوى الكبرى التي تتكون منها، والبحث عن أشكال احتلال جديدة تعويضاً لخسائرها التنافسية، ومن أجل تثبيت وضع السيطرة على المستوى العالمي والحفاظ على قوتها المركزية على المستوى الأوروبي.

أما عن تفكك الإمبراطورية فنجد أن الاقتصاد البريطاني لم يعكس القوة القتالية للبلاد، فقد عجزت المؤسسات الاقتصادية الحرة على حشد الموارد البريطانية لشن حرب شاملة دون حدوث اضطرابات كبرى، فالكساد الاقتصادي العالمي الكبير الذي خلفته نتائج الحرب العالمية الأولى أدى إلى تدهور التفوق البريطاني والصناعي والتجاري الذي ارتكزت عليه قوتها العسكرية والبحرية والاستعمارية، والذي سرعان ما أفقدها قدرتها التنافسية، لا لتوقف نموها الاقتصادي بل لسرعة نمو القوى الأخرى وعلى رأسها ألمانيا الاستعمارية والولايات المتحدة.

فيقول بروفيسر هاونز عام ١٩٠٤ " في حالة الحرب لا تستطيع أن تبقى على وسائل إنتاجك وعلى أساطيلك وجيوشك جميعاً في حالة كفاءة "

وكما كانت الحروب ونتائجها في أوروبا بعد عام ١٤٥٠م من أهم الأسباب التي أدت إلى بناء الدولة القومية ، كانت نتائج الحرب العالمية الأولى وما أعقبها من الحرب العالمية الثانية من أهم الأسباب التي أدت إلى تزايد الحركات القومية في المستعمرات والتي أدت بدورها إلى تصدع النظام الإمبراطوري الاستعماري، وتزايد الحركات الاستقلالية، وظهور الكومنولث البريطاني بتكوينه السياسي، والذي لم يكن دولة أو اتحاد، ولم يكن دستوراً مكتوباً، أو حكومة خاصة أو قوة دفاعية مركزية، أو قوة تنفيذية. ولكنه كان ظاهرة سياسية تعبر عن تفكك الإمبراطورية البريطانية.

وقد كان للإمبراطورية البريطانية (على من الرغم من تفككها) تأثيرات لاحقة، أكدت عظمة مقومات صعودها، فقد استطاعت بريطانيا أن تدعم وضعها بين الدول الكبرى العالمية، من خلال الاستناد إلى مقومات صعود الإمبراطورية السابقة؛ هذا إلى حرص الدائم على تطبيق سياسة التقييم الأولويات الإستراتيجية البريطانية بين أجهزة الحكم، وقياس كل القضايا المطروحة " الداخلية -- والخارجية " طبقاً للمصالح البريطانية. فكان ولا يزال سائداً حتى ذلك الوقت إستراتيجية " أن بريطانيا لها مصالح دائمة ولكن ليس لها حلفاء دائمون ".

٧- الاتجاهات العامة لصعود وتفكك الدولة الإمبراطورية الروسية: مما لا شك فيه أن الإمبراطورية الروسية كانت تحقق نمواً مطرداً في كل من الناحيتين العسكرية والصناعية سنة بعد أخرى، ولا شك كذلك في أنها كانت تمتلك قوى أخرى عديدة، مثل حجم الأرض الناتجة عن التوسعات ، وحجم مواردها الطبيعية، بالإضافة إلى حجم سكانها وحجم جيشها وغيرها من مقومات الازدهار التي أدت إلى تكوين وصعود الإمبراطورية.

ومع تلازم تكون مقومات ضعف الإمبراطورية مع ظهور مقومات الازدهار يثار تساؤل مهم: كيف استطاعت الإمبراطورية الروسية وسط تنامي مواطن الضعف أن تصنع هذا الاطراد في النمو والتطور والازدهار، وصولاً إلى مصاف الدول العظمى؟ إن الاتجاه العام لصعود الإمبراطورية أعطى الإجابة عن هذا التساؤل؛ فقد كان الوصول إلى ركب التقدم والحضارة الأوروبية هو الهدف الرئيس الذي اتخذت روسيا جميع الوسائل - بل الوسيلة الرئيسة - التي

حققت لروسيا الدافئة خاصة، والتي كانت السبيل نحو التوسعات التي جعلتها في منتصف القرن التاسع عشر، تشغل ما يقرب من تسع مجمل أراضي الكرة الأرضية، بما تحتويه من ثروات هائلة؛ ولذا لم تمتلك الإمبراطورية أراضي فيما وراء البحار، حيث كان الهدف فقط هو الوصول إلى هذا البحر.

لذا انتمت الإمبراطورية الروسية إلى "إمبراطوريات التوسع الإقليمي" حيث كانت امتداداً للإمبراطوريات "العصور الوسطى" على الرغم من انتمائها "للعصور الحديثة" التي تميزت إمبراطورياتها "بالإستغلال والاستعمار".

أما عن الاتجاه العام لتفكك الإمبراطورية، فقد تمثل في تخلف روسيا الاجتماعي والاقتصادي والتقني، والذي أدى إلى ضعف انهيار الإمبراطورية.

فلقد نجحت الإمبراطورية الروسية من تحقيق عنصرين فقط من عناصر التركيب البنائي للإمبراطورية وهما: عنصر الإقليم وما شمله من توسعات، وعنصر السلطة والذي تمثل في مركزية الحكم وأحادية السلطة التي تمثلت في الحكم المطلق.

إلا أنها أخفقت في عنصر الرعايا؛ الذي افتقد امتلاك فكرة واضحة عن الوطن والوطنية والمواطنة، فقد امتلكت الإمبراطورية قوى بشرية استطاعت من خلالها أن تحقق نوعاً من النهضة القائمة على القوة العددية وليس القوة الكيفية، بالإضافة إلى أن عنصر الرعايا في الإمبراطورية الروسية قد تمثل أيضاً في ١٢٦ قومية، أغفلت الإمبراطورية أن توفر له عنصراً يتم التوحد من خلاله فيتحقق الاستقرار. لذا كانوا مصدر للأزمات الداخلية والخارجية ولقد فقدت الإمبراطورية أيضاً القدرة على تحويل وتطوير الإمبراطورية إلى أن تكون الدولة الإمبراطورية والذي عبر عنها في مطالبهم ومبادئ ثوراتهم.

فكان إغفال عنصر الرعايا السبب الرئيسي لتفكك التركيب الثنائي للإمبراطورية، فلقد كشفت المعارك الحربية عن نقاط ضعف جديدة وقديمة وصولاً إلى الحرب العالمية الأولى، ومانتج عنها من هزيمة أظهرت خلل التركيب البنائي للإمبراطورية في صورة الثورات الشعبية، كان آخرها ثورة أكتوبر ١٩١٧، وماتولد عنها من تفكك للإمبراطورية الروسية وتكوين اتحاد فيدرالي، عرف باسم "الاتحاد السوفيتي".

فى التصور السابق ، حاولت الدراسة رصد مفهوم الدولة الإمبراطورية فى أكثر الإمبراطوريات تأثيراً فى النظام الدولى .
والذى يُعد المؤشر الرئيسى لظهور واختفاء الدولة الإمبراطورية -
وذلك لتحديد صياغة عامة لوصف الظاهرة بما تحويه من أحداث ،
وظواهر تدخل فى نطاقها . الأمر الذى أسهم فى:

تفعيل وصف الظاهرة بشكل منطقي على نحو مترابط يجمع
التفاصيل المشتتة فى بنية واحد مترابط تمثل فى استنباط منظم "
لإطار تحليلي لظاهرة صعود وتفكك الدولة الإمبراطورية " . تمثل
فى الآتى

١- التكوين . . . ويحتوى على وصف لعناصر الدولة الإمبراطورية
من الرعايا - الإقليم - السلطة .

١- عُمر الدولة الإمبراطورية . . . ويشتمل على الامتداد الزمنى
الذى من خلاله يتم استعراض خصائص الدولة الإمبراطورية

٢- مقومات صعود الدولة الإمبراطورية . . .

وتنقسم إلى :-

امقدمات نمو الإمبراطورية ، والتي تنسب إلى ما قبل الإمبراطورية
١- عوامل ازدهار الإمبراطورية ، والتي من خلالها تم تنظيم
الإمبراطورية فالمقومات بمثابة عرض لوظائف الإمبراطورية .

١- مقومات تفكك الدولة الإمبراطورية . . . وتنقسم إلى :

١- مرحلة الضعف . . . والتي استتبعت الدراسة أن تكوينها يبدأ منذ
تكوين الإمبراطورية ، أو أثناء فترات الازدهار ، فهى المشكلات
التي لا يتم القضاء عليها .

١- مرحلة الانهيار . . . وهى عملية تحول المشكلات إلى أزمات
تؤدى إلى عدم الاستقرار الداخلى ، وظهور المخاطر الخارجية .

ج - مرحلة التفكك . . . وفى تلك المرحلة تنقسم الدولة الإمبراطورية
إلى ولايات أو أقاليم أو دول مستقلة ، الأمر الذى يؤدى إلى اختفاء
البناء الوظيفى للإمبراطورية وتختفى الدولة الإمبراطورية كوحدة
من وحدات بنية النظام الدولى .

تم تنظيم المعلومات وفقاً " لأهداف الدراسة " من خلال المراجع التالية:

- جينس هنري برستد - تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي ،
ترجمة د. حسن كمان - مكتبة المدبولى - القاهرة

د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ - المدخل إلى علم التاريخ - المكتبة الأكاديمية -
القاهرة - ١٩٩٤ - ص ١٢١

عزيز فهمي - إسقاط نظرية صراع الحضارات وإعادة تقديم الإسلام للعقل العربي -
مطبعة الزهراء للإعلام العربي - القاهرة لمزيد من التفاصيل حول هذا المعنى:

د. نادية مصطفى - نظرية النظم ودراسة العلاقات الدولية - محاضرات غير منشورة - معهد
البحوث والدراسات العربية قسم البحوث والدراسات السياسية - القاهرة - ١٩٩٩ -
١٩٩٠.

سليم حسن - مصر القديمة "عهد الهكسوس وتأسيس الإمبراطورية - الهيئة المصرية
العامة للكتاب - القاهرة - ١٩٩٣

د. وهيب أبو فاضل - موسوعة عالم التاريخ (العالم من عصور ما قبل التاريخ حتى
القرون الوسطى - الجزء الأول - مكتبة مبارك - بورسعيد - ٢٠٠٣ م.

عبد الرحمن الرفاعي - تاريخ الحركة القومية في مصر (من فجر التاريخ إلى الفتح
العربي) - دار المعارف - القاهرة دون سنة نشر.

- موسوعة الفراعنة - دار الفكر والنشر والتوزيع - القاهرة - ١٩٩١.

- نيقولا جريمال - موسوعة الفراعنة - ترجمة: ماهر جويجاتي - دار الفكر
للدراسات والنشر والتوزيع - القاهرة -

د. وهيب أبو فاضل: موسوعة عالم التاريخ (العالم من القرون الوسطى الرومانية
وسقوطها) - الجزء الثاني - مكتبة مبارك - بورسعيد - ٢٠٠٣

إدوارد جيبون - ترجمة على أبو درة - إضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها
- الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - ١٩٩٧ - ص ٤٨.

أندرية إيمار - ترجمة فريدم. داغر - تاريخ الحضارات العالم "روما وإمبراطوريتها" -
عويدات للنشر و الطباعة - بيروت - لبنان ٢٠٠٣

د. إبراهيم نصيحي - تاريخ الرومان - منذ أقدم العصور حتى عام ١٣٣ ق.م - الجزء
الأول - ايداع كلية الأدب - جامعة عين شمس - القاهرة - ١٩٨٣

د. إسحاق عبيد - الإمبراطورية الرومانية بين الدين والبربر - دار المعارف -
القاهرة - ١٩٧٢

ريتشارد أساليهان - ورثة الإمبراطورية الرومانية - ترجمة: د. جوزيف نسيم
يوسف - مؤسسة شباب الجامعة - الإسكندرية ١٩٨٥

- د. سيد أحمد على الناصري - تاريخ الإمبراطورية الرومانية (السياسي والحضاري) -
دار النهضة العربية - بيروت - ١٩٩١
- ل. م. هارتمان، ج. باراكلاف - الدولة والإمبراطورية في العصور الوسطى -
ترجمة: د. جوزيف نسيم يوسف - دار المعارف بمصر - د. ت
- د. جوزيف نسيم يوسف . تاريخ الدولة البيزنطية (٢٨٤ — ١٤٥٣) مؤسسة
شباب الجامعة - الاسكندرية — ١٩٨٤
- هـ - سانت موس — ميلاد العصور الوسطى (٣٩٥ — ٨١٤) ، ترجمة عبد
العزیز توفيق جاويد — الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة . ١٩٩٨
- ج. كولستون: عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة - ترجمة: د. جوزيف
نسيم يوسف - مؤسسة شباب الجامعة - الإسكندرية - ١٩٨٣
- عبد الشافي عبد اللطيف - العلمانية في الفكر الإسلامي - المركز الدولي للدراسات
المستقبلية والإستراتيجية (قضايا) العدد ٨ - السنة الأولى فبراير ٢٠٠٥ - ص ٢٤
- د. علي عبد الحليم محمود - التراجع الحضاري في العالم الإسلامي وطريق التغلب
عليه - الوفاء للطباعة بالنشر - المنصورة ١٩٩٤ - ص ٢٠٢
- لؤي صافي - العقيدة والسياسة - المعهد العالمي للفكر الإسلامي - ١٩٩٦ -
- د. حسين فوزي النجار - الدولة والحكم في الإسلام - دار كتاب الحرية - العدد الرابع
- سبتمبر ١٩٨٥
- د. صبحي عبده سعيد - السلطة السياسية في المجتمع الإسلامي - ايداع مكتبة
المجلس الأعلى للصحافة - القاهرة - ١٩٩١
- خليل عبد المنعم خليل مرعي - دراسة حول العدالة في نظام القيم السياسية الإسلامية
"دراسة نموذج الخلافة الراشدة" رسالة ماجستير - كلية الاقتصاد والعلوم السياسية -
جامعة القاهرة - ١٩٩١ -
- د. حامد ربيع - نظرية القيم السياسية - مذكرات غير منشورة - قسم العلوم السياسية
- كلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة - ١٩٨٢

قرار لجنة المناقشة والحكم

تم بفضل الله مناقشة رسالة الدكتوراه المقدمة من الباحثة / ونام السيد أحمد عثمان ،
بكلية التجارة ببورسعيد بقسم العلوم السياسية والإدارة العامة وموضوعها :
النظرية العامة في صعود وتفكك الدولة الإمبراطورية : دراسة حالة للإمبراطورية
السوفيتية (١٩١٧-١٩٩١)
وذلك في تمام الساعة الحادية عشر صباح يوم الأربعاء الموافق
٢٠١٠/٣/٣١ بمقر مبنى الجامعة بالقاهرة ، وقررت اللجنة قبول الرسالة
واقترح منح الباحثة / ونام السيد أحمد عثمان درجة الدكتوراه
في العلوم السياسية
وتتكون لجنة المناقشة والحكم من السادة :

مشرفا ورئيسا

الأستاذ الدكتور / جمال على زهران

أستاذ العلوم السياسية
ورئيس قسم العلوم السياسية
بكلية التجارة ببورسعيد

مناقشا

الأستاذة الدكتورة / نازلي معوض أحمد

أستاذة العلاقات الدولية المتفرغ
بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية
بجامعة القاهرة

مشرفا ومناقشا

الأستاذ الدكتور / محمد عز الدين عبد المنعم

أستاذ غير متفرغ بقسم العلوم السياسية
بكلية التجارة ببورسعيد
ونائب وزير الخارجية (السابق)

مناقشا

السيد الوزير / أحمد ماهر السيد

وزير الخارجية (السابق)
وسفير مصر الأسبق في الاتحاد السوفيتي
والولايات المتحدة الأمريكية

عميد الكلية

وكيل الكلية للدراسات العليا والبحوث

أ.د محمد نجيب حمد

أ.د / محمد أحمد عبد النعيم